الثورة
الجمعة 24 ذو الحجه 1433هـ 9 نوفمبر 2012م العدد (17523)

محفوظ وتجديد الرواية العربية

■ يضم كتاب "نجيب محفوظ الصورة والمثال، للناقدة د.لطيفة الزيات، مجموعة من المقالات عن بعض روايات نجيب محفوظ، تنتمي إلى فترة زمنية تمتد من أوائل الستينات من القرن الماضي وحتى اليوم، وترجح فيها كفة الاهتمام بالفترة، بدءًا من "اللص والكلاب" وإلى "ميرامار" وما عداها؛ حيث تعتبر المؤلفة هذه الفترة هي أهم فترات تطور أسلوب نجيب محفوظ الروائي، وتتحمس للتجديد التقني الذي استحدثه في الرواية العربية. وتمثل الدراسة بوجه عام، رؤى نقاشية حول الشكل الروائي والمنظور الفلسفي في عالم نجيب محفوظ.

وتُرجع الزيات الفضل لنجيب محفوظ في أن الكاتب الحديث في مصر، استطاع أن يتحرك بحرية، وأن يخرج من نطاق التسجيل الفوتوغرافي إلى نطاق التصوير الرمزي، هذا الذي يُغني التجربة الواحدة بمستويات مختلفة من المعاني، وقد تحرك بعض الكُتّاب المعاصرين في هذا الاتجاه.

إن أحد أهم إنجازات نجيب محفوظ في رواية "اللص والكلاب"، كما تقول المؤلفة، أنه نجح في إعادة التوازن بين الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية.. فالرواية تحتوي على قدر كبير من السرد والحوار التقليدي، ومن الأحداث الخارجية أيضًا، فبطل الرواية "سعيد مهران" يعيش خلال الفترة الزمنية للرواية حياته الخارجية كاملةً، وهو يخرج من السجن.

ويقتل أكثر من شخص ويهرب من البوليس، ثم يلقى مصرعه في النهاية، فالرواية لا تنقصها الأحداث الخارجية المثيرة، ومع ذلك فنحن نشعر طوال الوقت بأن هذه الأحداث ليست مهمة في حد ذاتها، بل إنها تستمد أهميتها ومعناها لأنها تنعكس خلال شعور الشخصية الرئيسة، وكأن الحدث بأكمله يحدث في شعور واحد، هو شعور سعيد مهران.

وتؤكد الزيات أن نجيب محفوظ في "اللص والكلاب"، يُقرن الحقيقة الداخلية بالخارجية، ويحرص على إيجاد التعادل بين الحقيقتين، فالحقيقة بالنسبة إليه ليست حقيقة داخلية بحتة ولا خارجية بحتة، بل هي مزيج بين الاثنتين، وقد كان طبيعيا والأمر كذلك أن يختار من بين مستويات الشعور التي تسبق مرحلة الكلام أقربها إلى مرحلة الكلام، أي

ذلك المستوى القريب من السطح، وهو المستوى الذي يختاره كاتب القصة الذي يريد أن يمزج بين الحقيقة الداخلية والحقيقة الخارجية، وأن يتتبع العالم الداخلي للشخصية من ناحية، وأن يستفيد من الناحية الأخرى بمزايا الرواية التقليدية من حيث بناء القصة، وتوافر الأحداث الخارجية.

وفي تناولها لرواية "الشحاذ" التي نُشرت عام 1965، ترى المؤلفة أن الحقيقة الوحيدة التي تشغل بطل الرواية "عمر الحمزاوي" هي حقيقة مواجهة الموت دون أن يتحقق للحياة المعنى.

كما تتناول الكاتبة بالدراسة، قصة "صوت من العالم الآخر" التي نشرها نجيب محفوظ عام 1945، وترى أن القصة تدليل كلاسيكي لمفهوم الكاتب للوجود ولوضعية الإنسان في هذا الوجود، وتعليق على الفعل الإنساني في ظل رؤية للزمن تصدر عن هذا المفهوم المثالي.

وتتبع القصة في إطار فرعوني، وضعية الإنسان ما بعد الموت، في مفارقة حادة لوضعيته في الحياة، وتبدأ القصة وتنتهي وكاتب أمير من أمراء الفراعنة في القبر، يحكي لنا ما كان من مداهمة الموت له، وسقوط الجسد عنه وتوحده مع جسد الكون، ورؤيته لحقيقة هذه الدنيا إبان التوحد، وانتظاره للمرحلة الأخيرة في رحلة الأبدية، وهي مرحلة التوحد مع الحقيقة العليا، وتنتهي مذكرات "توني" قبل أن يقلع إلى هذه المرحلة الأخيرة.

ومن جهة أخرى، ترى د. لطيفة الزيات في رواية "عبث الأقدار"، وهي أولى روايات نجيب محفوظ، والتي اعتبرها أغلب النقاد عملا روائيا فاشلا يفتقر إلى النضج الفني، ترى فيها مدخلا مهما لفهم رؤى نجيب محفوظ للوجود وطبيعة الصراع الدرامي، وبذور أنسنة اللامحدود في المحدود، واللامحسوس في المحسوس، والتي يعتبرها الفيلسوف الألماني "هيجل" ضرورية الفن العظيم.

وتلاحظ الزيات أن "عبث الأقدار" تفتقر إلى الصراع، والصراع عند هيغل ليس صراعا بين خير وشر، ويتأتى أن يكون الصراع بين خير وخير؛ لأنه صراع بين أطراف الجوهر الأخلاقي ذاته، وكل أطراف الجوهر الأخلاقي خيرة أياً كانت القوة الأخلاقية التي تتمثلها، والصراع يجري بين فرد وآخر.

ولكنه ليس بحال صراعا حول فردية كل منهما، فالصراع يجري بمدى ما يتمثل الفرد ذاتــه في مطلب أخلاقي عام يمس المجتمع بأكمله، وربما الكون، ومن ثم فهو صراع خيّر دائما، لا يعيبه إلا تطرف كل من طرفيه، تطرفًا يلغي الحق الأخلاقي المضاد؛ وإنهاء الصراع بالنسبة إلى هيغل لا يعني إلغاء مطلب أخلاقي لحساب الآخر، ولكنه يعني إرساء الاعتدال ضد التطرف، وإحلال الوحدة محل الانقسام، وفي "عبث الأقدار" يحرص نجيب محفوظ على توكيد الصفة الأخلاقية للصراع الذي يجريه، ويعمد إلى التقرير خشية أن يتوهم القارئ أنه أمام صراع خير وشر.

الكتاب: نجيب محفوظ.. الصورة والمثال – المؤلفة: د. لطيفة الزيات – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . 2012 – الصفحات:265 صفحة – القطع: الصغير. القاهرة – دار الاعلام العربية

ماذا نفعل بهشاشتنا؟

● هناك الملايين، عشرات الملايين، بل مئات وربما آلافها، يعيشون اليوم حالة من الهشاشة في شتى أنحاء العالم. وفي فرنسا وحدها، هذه البلاد الغنية، التي تجد تصنيفها ما بين المرتبة الخامسة والسادسة على المستوى الاقتصادي العالمي، يوجد ما يزيد على 8 ملايين نسمة، يقل دخلهم الشهري عن 1000 يورو شهرياً، أي ممن يمكن تصنيفهم بـ«الفقراء».

مثل هذا الواقع الاقتصادي يجد ما يوازيه من الأحاسيس لدى البشر. وما تتم ترجمته بالقلق من الاستبعاد، والخوف من السقوط، والخشية المستمرة من التهميش، إلى آخر السلسلة من التوصيفات التي تذهب في اتجاه الإحساس بالهشاشة نفسه. وهذه الهشاشة هي بالتحديد موضوع كتاب غيّوم لوبلان، أستاذ الفلسفة في جامعة بوردو الثالثة. عنوان الكتاب هو: «ماذا نفعل بهشاشتنا»؟

في البداية يقدّم المؤلف على مدى العديد من الصفحات، توصيفاً لأحاسيس الهشاشة التي تتغلغل في حياة البشر اليوم، وفي عموم المجتمعات الموصوفة بالمتقدمة، بقوة لا سابق لها. ثم يشرح على مدى الأقسام الثلاثة من الكتاب، موضوعات ومحاور: حق العيش، باسم الآخرين، المسألة الاجتماعية الجديدة اليوم. إن المؤلف يفضّل استخدام تعبير هشاشة بدلاً عن الفقر. وإذا كان يرى في الهشاشة إحدى سمات الشخصية الإنسانية، وليس هناك إنسان بمنجاة منها بالمعنى العريض الواسع، فإنه يؤكد وجود درجات تصل في

حالات البؤس إلى الإحساس بالخوف، في إطار الوسط الاجتماعي المحيط.

ويناقش المؤلف في هذا السياق، ما يسميه بالسياسات الاجتماعية والديمقراطية الاجتماعية، كأحد مظاهرها الرئيسية. وما يتم التأكيد عليه هو رفض ما يسميه المؤلف بنمط الحياة الجاهزة، على أساس أطر محددة. والمطلوب، كما يرى، هو الوصول إلى نوع من الحياة المشتركة، وهذا يتطلب بالضرورة جعل هدف تقليص الفقر، يحظى بالأولوية، في السياسات الحكومية الوطنية أو الأوروبية، على صعيد مجمل بلدان الاتحاد الأوروبي.

لكن المؤلف يرى أن الهشاشة خلقت نوعاً من الدينامية، التي جعلت من المعنيين بها قوة حقيقية في مجتمعاتهم. إن المؤلف يعود بأشكال مختلفة إلى نقاش الأسئلة المتعلقة بالاستبعاد الاجتماعي والهشاشة، وكل مرادفاتها والتعابير التي تدل عليها. ولكنه يؤكد أهمية تجنّب الكلمات التي يمكنها أن تثير مشاعر أولئك الذين دفعهم المجتمع، الذي يعيشون فيه، إلى الهامش، وذلك خارج دائرة المعايير المسيطرة.

ويرى غيّوم لوبلان، أن واقع الأزمة التي تعيشها المجتمعات الأوروبية، والغربية عامة، يدفع نحو الأخذ بخطاب هادئ، يؤمن السلام الاجتماعي، ولا يصبّ الزيت على النار. هذا إلى جانب الإعلان الصريح عن ضرورة أن يكون هناك من يريد أن يجعل نفسه، كصوت من لا صوت لهم.

وبالاعتماد على التجربة المعاشة في المجتمع الفرنسي، كأحد أنماط المجتمعات الاستهلاكية الغربية، يشرح المؤلف أن واقع التهميش الذي تعيشه شرائح اجتماعية تتسع أكثر فأكثر، وما يترتب على ذلك من إحساس بالقلق، لا يعود فقط إلى تعاظم ظاهرة البطالة، ولكن أيضاً إلى السياسات الرسمية للعمل، مثل تبنّي العقود لفترة محددة أو العمل بعدد ساعات قليلة، أو غير ذلك من الآليات التي تدفع منطقياً، نحو التهميش.

وتتم الإشارة في تحليلات هذا الكتاب على ذلك القدر من نقص الاحترام المتبادل، بين المكونات الاجتماعية، وبين العاطل عن العمل ومن لا يعاني من البطالة. وهذه الأمور كلها تؤدي بالنتيجة إلى تضاؤل فكرة المساواة نفسها، في مجتمعات تقول إنها جعلت منها أحد الأسس التي تقوم عليها. ويكتب المؤلف: «إن التقليل من قيمة الذين يعانون من الهشاشة الاجتماعية، يؤدي بالمقابل، إلى التقليل من قيمة المجتمع الذي يدفع نحو الهشاشة أكثر فأكثر».

وفيما هو أبعد من القلق الإنساني الذي تولده الهشاشة الاجتماعية، يهتز لدى المعني بها الإحساس بالانتماء المشترك. وهذا في الوقت الذي يتم التأكيد فيه، أن الدفع نحو حياة هامشية، لا يشكل قدراً لهؤلاء أو أولئك، ولكنه بالأحرى نتيجة بناء اقتصادي واجتماعي وسياسي، انتهجته المجتمعات المعنية، كسبيل في تحديد آليات عملها.

ويؤكد المؤلف ان تحميل الذين يعانون من الهشاشة مسؤولية هشاشتهم، لا يشكل سوى محاولة لطمس الظلم الذي يعانون منه. إنه الظلم الذي يتم التعبير عنه بالدفع نحو العيش كإنسان، من دون قيمة ومن دون ثمن. الأكثر أهمية في مواجهة الهشاشة الاجتماعية وما يترتب عليها، يجده المؤلف في استخدام الخطاب الصحيح والانتهاء من هذا العالم الذي لا يستطيع دمج البعض فيه، سوى عبر استبعاد الآخرين، كما يكتب. ويؤكد أنه لا يوجد في جهة المهمّشين، وفي الجهة الأخرى المندمجين، ولكن يوجد بالأحرى، مجتمع يشكّل هؤلاء وأولئك: «وجهي ميداليته». ان الهشاشة إحساس مشترك للجميع اليوم في المجتمعات الاستهلاكية الغربية، وحتى أولئك الذين تبدو حياتهم محميّة.

الكتاب: ماذا نفعل بهشاشتنا؟ – تأليف: غيّوم لوبلان – الناشر: بايار باريس 2011 – الصفحات: 213 صفحة – القطع: المتوسط.

«زفْرةٌ مِنَ الأعْمَاق»

محمد الشامي

أنَا لَنْ أكُونَ بِدَايَةً
في كُلِّ ثَانِيَةٍ أَذُوبُ
أنَا لَنْ أكُونَ نِهَايَةً
وَجِلَتْ بِقَسْوَتِهَا القُلُوبُ
كَمْ صَاحِبٍ قَدْ لامَنِيْ
والشِّعْرُ كَانَ هُوَ المُجِيبُ
سَأَظَلُّ أكْتُبُ مَا أريدُ
ورَادَهُ مِنِّيْ الحَبِيبُ
سَأَظَلُّ أَرْسُمُ مَا أَرَى
ويَرَاهُ في البُعْدِ القَرِيبُ
وأسَطِّرُ الماضي حُروفاً
تَختفي مَعَهَا العيُوبُ
مهما جَفَاني النّاسُ
قَدْ تَمْحُو خَطَايَانا الغيُوبُ
لكِنّني في حَالةٍ
يَلْهُو بِهَا الزّمَنُ العَجِيبُ
حاوَلْتُ أقْرَأُ وَجْهَهُ
فتكاثرتْ فوقي الخطوبُ
والموتُ يأتي مَرّةً
والكُلُّ يدري ما الوجوبُ
قد تُبْتُ للرحمن حتّى
لَوْ تكَاثَرَتِ الذُّنُوبُ
لكنّ قلبي قَدْ أَبَى
عن حُبِّهِ يوماً يتوبُ
وأنا الذي مَا زلتُ في
وطني الوحيدَ أنا الغَرِيبُ.

كلامٌ أبيْض

ياسين البكالي

«إلى عجوزٍ تُناهزُ السبعين.في داخلِها تتكئُ شابة
على أريكةٍ مِنْ نور وثمّة رحماتٍ تَحُط على وجهِها
المُتشحِ بأزاهير الخلود».

كانتْ تُحَدّثني
وصمتُ عيونِها يتلو كلاماً أبيضاً
يوحي لذاكرتي
بما لمْ أستَعِدّ له مِنْ الكلمات
شيئٌ ما يُراقِصُ على سفوحِ مَشاعري
وأنا أُقبّل كفّها
نصفي يدوخُ على دمي
وبقيّتي في أسفلِ المعنى
يُحرّك ساكناً في القلب
كنتُ أضنّه مِنْ قبلِ رؤيتِها مُحالْ
يا شيختي ..
وأرى شجونَ الماءِ ترفلُ
في محطاتِ القصيدة
كلما شاهدتُها تزهو بماضيها
الذي حملَ الكثيرَ مِنَ الجمالْ
هيَ وحدُها
لُغةٌ على قاماتِها التأريخُ يصحو
ثمَ يصحو
تمَ يأتي بالرجالْ
أُمّاهُ يا شفةَ الشروقِ
تَلَعْثميّ بي مَرةً
حسبي بها لأخوضَ قلبكِ
ثمَ أخرجُ منه
مَمْتلئاً بآياتِ الجلالْ
عيناكِ جيلٌ
تستريحُ على مشارفِه الورودُ
– وأنتِ تبتسمينَ
تُزْهرُ ألفُ أمْنية على شفتي
تهرولُ نحوكِ الأفكارُ
أتبَعُها
لأهْبطَ في يديكِ حمامةً
أنتِ اخضرارُ الحُبِ في أعماقِها
أنتِ الجوابُ على مَدارِكها
المُحاطةِ بالسؤالْ
قولي كثيراً
وتَلعثمي
فلسوفَ أنْصتُ رغمَ أنفي
وستنصتُ الدنيا معي
وتَكَلّمي
إنّ الجواهرَ في لِسانكِ
بَعْدُ ما اكْتُشِفَتْ
وإنّي يا لحَظي
سوفَ أرْقُدُ هانئاً في مُقلَتيك
وأرتَمي باقاتِ خوفٍ بين حضْنِك
كُلّما أحسستُ أني فيكِ أحيَا
يدخلُ الإيمانُ روحي مِنْ جديدٍ
تطرقُ الأفراحُ بابي مِنْ بعيدٍ
كلُ أحوالي تَمَنّتْ
أن تصيرَ لديكِ حالْ
طوبى لوقتي إذ رآك
فصارَ مِنْ أهلِ اليمينِ
وكانَ مِنْ أهلِ الشمالْ
ما جاءَ إلا منكِ فجرُ مدينتي
ها أنتِ مِنْ رسمِ الحكايةِ تنتهين
فتبدأ البُشرى بسِحْنَتِكِ البديعةِ
تكتبُ الآتي
بما يحويه – حينِ يرى قدُومَكِ – مِن دلالْ
لا شكّ أني فيكِ مُنشغِلُ
تُهَدْهِدُني السعَادةُ
. إذ أراك . تَخِرُ أوردتي
وكَمْ شيئٍ هُنا يُلقي تحيّتَه عليكِ
تُلْملمُ الصبواتُ أجزائي
فأغدو كُتلةً للْحُبّ
لا همَّ لها إلا ارْتِشافُ الشَهْدِ
من ثغرِ السماء
– لقد تَدلّى الضَوءُ في رئتي
ومِنْ أقصى النسيمِ دَلَفتُ
إليكِ مُغْتَبطاً
بقولِكِ لي تعالْ
×××××
مُرّي بها يا أرضُ وادّكري
ليخْشعَ قُربَها قانونُ عَجزِكِ
إنّ ثمةَ آيةً لله
أنزلَها عليّ
وإنّ ثمةَ سجدةً
لا بُدّ منها أن تُتَمّ بإبْتِهالْ
وإذا اندلَقتُ جوارَها
فلأنها .أُمُ الينابيع.
التي غمرتْ فمي شَجْواً
وجائتْ بالغلالْ
منْها إليها تَهرعُ الأيامُ
لا خوفاً ولا طمعاً
وَرُبّ حقيقةٍ لمَعَتْ ..
فما تركتْ مجالاً لِلْخيالْ

2010|11|25م